المجلــة الأردنيــة للفنــون، مجلد 12، عدد 3، 2019 259-282

رؤية سميولوجية لفن المنمنمات الإسلامية في ظل العناصر الكونية الأربعة

شيرين معتوق الحرازي، قسم الرسم والفنون، كلية التصاميم والفنون، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، المملكة العربية السعودية

تاريخ الاستلام: 2018/9/17 **تاريخ القبول: 2019/4/11**

A Semiological view of the Art of Islamic Miniatures and the Four Elements of the Universe

Shereen Matook ALharazy, Art and Drawing Department, College of Art and Design, King Abdulaziz University, Jeddah, Saudi Arabia

الملخص

إن نشوء فكرة عناصر التكوين الأربعة الماء والهواء والتراب والنار لم تنشأ من فراغ، بل ظهرت كأحد مقومات العقل البشري الباحث فيما وراء العالم المادي والمستكشف للغة الطبيعة. وقد ربط الفلاسفة القدماء عناصر التكوين الأربعة هذه بمختلف النشاطات الإنسانية كوسيط بين جوهر ثابت للكون ووجود الكون المادي المتغير، وبما أن الفن هو نتاج للنشاط الإبداعي الإنساني وتفسير لرؤية الإنسان للكون والظواهر من حوله، فكان لا بد من انعكاس لتلك العناصر الكونية في الطاقة الإبداعية والخيالية للفن والفنان. فقد استلهم فنانو العصور الإسلامية بعضا من معتقدات العصور السابقة وعكسوها في مختلف فنونهم وإبداعاتهم، فظهر فن المنمنمات الإسلامية والتي قدمت بطابعها الأسطوري بنية تركيبية متكاملة لعناصر فنيه تكاملت فيها المعاني الجمالية التي تخاطب الروح والمعاني الفنية التي تخاطب العين داخل شبكة متراكبة.

وتهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن أثر تلك العناصر الكونية الأربعة داخل منظومة المنمنمات الإسلامية والتي اصطبغت بها بمدخل فلسفي ظهر في الشكل والمضمون سعيا لتحقيق مفاهيم عدة مستمدة من روح العقيدة الإسلامية، ويظهر على إثرها الارتباط الوثيق بين الإنسان وظواهر الكون التي يعتمد بعضها على بعض ليستمر التوازن والاستقرار في الكون بينه وبين سيكولوجية الفكر البشري، تقودنا إلى أبعاد جديدة داخل العمل الفني الغرض منها تصوير عناصر الكون والحياه والبشر في علاقه مرتكزة على النشاط الإنساني كمحور أساسي في التشكيل قاعدته الكون بجهاته الأربعة، مما نتج عنها رؤية سيميولوجية اعتمدت على تفكيك بنية المنمنمة الإسلامية وكشفت عن مدلولاتها وتغير علاقتها بالوعي، ليظهر لنا الشكل الفني بمستويات من الدلالات ذات أنساق فلسفية متداخلة أضفت عمقا استراتيجيا جديدا لهذا الفن وجعلت منه فنا متكاملا في صور تشكيلية مصغرة، قدمت لنا فنا قائما بذاته محوره لغة الفنان ولغة الكون من حوله.

الكلمات المفتاحية: المنمنمات، الفن الإسلامي، العناصر الكونية الأربعة ، السيميولوجيا.

Abstract

The ancients believed the world to be composed of four basic elements, Fire, Water, Air, and Earth, which did not originate from nowhere, but emerged as a component of the human mind looking beyond the physical world and exploring nature. The ancient philosophers linked these four elements to various human activities as a mediating synthesis between a fixed essence of the universe and the existence of the changing material in the universe.

Since art is a outcome of human creative activity and an interpretation of the human view of the universe and the phenomena around it, it was necessary to reflect these elements in the creative and fictional mind of art and artist. The artists of the Islamic ages were inspired by some of the beliefs of previous eras and reflected them in their various arts and creations. The art of Islamic miniatures is a miniaturized picture of the content of a manuscript or a book whose mission is to represent the idea or image in a symbolic character associated with physical and spiritual concepts and beliefs

. These drawings, by their legendary nature, provided an integrated structure for artistic elements, in which the aesthetic meanings that address the soul and the artistic meanings that address the eye within an overlapping network are presented.

The view and contemplation of a Semiological vision does not aim to dismantle the structure of Islamic miniatures only, but it reveals its meanings and changes its relation with the awareness. The artistic form overlapping philosophic appears in levels of connotations that give to this art a new strategic depth. In addition, the art of Miniature offers us a self-contained art centered on the language of the artist and the language of the universe around him.

This study attempts to explore the effect of these four elements within the Islamic system of miniature art, which was adopted by a philosophical approach that appeared in form and content in the pursuit of several concepts derived from the spirit of Islamic faith.

Keywords: Miniature, Islamic art, the four elements, Semiology.

مشكلة البحث:

الكشف عن رؤية سيميولوجية (دلالية) للعلاقة بين المنمنمات الإسلامية والعناصر الكونية الأربعة ذات رؤية ابداعية فلسفية.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في توضيح أثر العناصر الكونية الأربعة: الماء، والهواء، والتراب، والنار داخل منظومة سيميولوجيا المنمنمات الإسلامية التي اصطبغت بها بمدخل فلسفي ظهر في الشكل والمضمون سعيا لتحقيق مفاهيم عدة مستمدة من روح العقيدة الإسلامية.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى:

1. الكشف عن المعارف والحقائق والمفاهيم الخاصة بالعناصر الكونية الأربعة.
2. التعريف بالمنمنمات الإسلامية وتحديد نشأتها وخصائصها ومميزاتها.
3. تحديد المخزون الفكري والثقافي للفكر الفلسفي للفن الإسلامي وأثره على مجال التصوير وخاصة المنمنمات.
4. التعرف على سيميولوجيا العناصر الكونية وأثرها في تحقيق التخيل والإبداع في المنمنمات الإسلامية.

فروض البحث:

إن الكشف عن سيميولوجيا المنمنمات الإسلامية وعلاقتها بالعناصر الأربعة وبالإبداع الفني، وإشكالية المنمنمة ومفهومها ومفهوم المحاكاة والجذر الفلسفي والمفهوم السيموطيقي لأشكالها والتحليل البلاغي يساعد على إيجاد تفسير للإبداع استنادا إلى المركبات الثقافية التي هي (مجموعة من المواقف اللاواعية التي تسيطر على التفكير ذاته).

منهجية البحث:

سينتهج الباحث المنهج الوصفي التحليلي الذى يعتمد على دراسة الحالة وتحليل العناصر المكونة لها واستخلاص النتائج.

الكلمات المفتاحية

المنمنمات:

هي صورة فنية صغيرة الحجم، رسمت في كتاب من أجل توضيح المضمون الأدبي أو العلمي أو الاجتماعي أوغير ذلك من الموضوعات التي حفلت بها الكتب والمخطوطات في العصور الوسطى.

الفن الإسلامي:

هو مصطلح شامل لجميع أشكال الفنون التي ظهرت بعد القرن السابع الميلادي داخل الأراضي الإسلامية، وهو يجمع بين الثقافات شرق الأوسطية كالمصرية والبيزنطية وبلاد فارس القديمة، إلى جانب الثقافات الشرقية في الهند والصين.

العناصر الكونية الأربعة :

هي نظرية علمية قائمة منذ ألفي عام وتشكل حجر الأساس في الفلسفة والعلوم والطب، تقوم على أن كل شيء مرئي يتكون من مزيج من الأرض والماء والهواء والنار. وهذه العناصر الأربعة تتفق مع عناصر المادة الصلبة (الأرض)، والسائلة (الماء)، والغازية (الهواء)، والبلازمية (نار).

السيميولوجيا:

وهو مصطلح مشتق من الكلمة الأغريقية (Sémion)، ويعرف بأنه علم الدلالات والمعاني، وهي من أهم المناهج النقدية المعاصرة التي تختص بتحليل وتفكيك وتأويل الأنشطة الإنسانية لفهم مسارات الإبداع البشرية.

المقدمة:

لطالما بحث الفنان المسلم عن طريقة ليتواصل بها ويعبر فيها عن أفكاره ومعتقداته في حيز الوجود الإنساني، ومن أبرز منجزات ذلك الفنان كانت المنمنمات الإسلامية. إن ظهور المنمنمات كلغة رمزية يمكن التعبير عنها برسومات تصويرية نتجت كوسيلة للتواصل ونقل الأفكار بين البشر، والتي كان من أهدافها تمثيل هيكل تصوري للكون ينعكس في لغة روحية ورمزية عُبر عنها في المخطوطات بنظام روحي وبانسجام وجمال يترجم عالم الروح والحكمة.

وقد أشار د. إياد عبدالله إلى أن المنمنمة تحوي مجموعة كبيرة من الإشارات والرموز الدالة، وبالتالي فإنها نظام ذو دلالة مهما كان تنوعها وأصلها، فلكل منها بنية خاصة لها ذات ووظائف داخلية وخارجية. وهذا الكم الهائل من العلامات والرموز والإشارات التي تكتنزه المنمنمة الإسلامية لا يضاهيه عمل فني آخر من أي طراز، ووفقا لقواعد الاتصال البصري فإننا أمام مجموعة من الصور البصرية المتراكبة وليست صورة واحدة، مما يدعونا إلى رؤية استكشافية لسيميولوجية هذه الصور (Abdullah,2010).

رغم حرص الفنان على تصوير المنمنمة في منطق سليم في ظل الفكر الإسلامي الذي فرق في كثير من المتناقضات وأبعد مشاهد عديدة من الخيال، لم يزل في بعض نواحيه ينهل من تراث الشعوب في مرحلة ما قبل الإسلام، وهذا أمر طبيعي حتى إنه في كثير من نواحيه ظهر في الشكل والمضمون، من هنا كان لا بد من دراسة لسيميولوجيا المنمنة الإسلامية التي تأرجحت بين الحقيقة والخيال، مما أضفى الكثير من الأفكار الفلسفية ليس على مستوى الوقائع في منحاها التاريخي والإيديولوجي، وإنما على مستوى الشكل الظاهر الذي غالبا ما كان ينسجم مع طبيعة الحياة ومراحل نموها الفكري والعقدي الذي تضمن نظرة شاملة لعناصر الكون والطبيعة من حولنا.

في البحوث القديمة قبلت الفلسفة الغربية وجود أربعة عناصر أساسية لتكوين العالم: الماء، والهواء، والتراب، والنار، وهي ترتبط بنوع من التأثير المتبادل بينها، وأعطت تفسيرا للعالم يقوم على أن كل العناصر متماسكة في ارتباط تام في كل مكان.

وقد أعيد الأخذ بهذا المفهوم للعناصر الأربعة من قبل عدد كبير من الباحثين ليس في القرون الوسطي فحسب، وإنما حتى القرن التاسع عشر حيث تعرف الفنان (بول كلي) على سر الوجود أو تلك العلاقة الجوهرية بين الطبيعة والكون من ناحية، وبين الإنسان والأشياء من ناحية أخرى؛ وفي هذا يقول (كلي): "إن العنصر المحدد من العناصر الأربعة وهي الهواء والماء والأرض والنار، لا بد من أن يمتزج برؤى العالم، فبعد مجابهة هذه العناصر بعضها ببعض، لا أرى وجودا لفن تجريدي، ولا يبقى بعد ذلك غير التجريد الزائل... إن المادة هي العالم، حتي لو لم يكن هذا العالم هو العالم المرئي" (Reid ,1998).

ومما لا شك فيه أن اعتماد فكر وصور للعناصر الأربعة في الكون تكرر في مشاهد متعددة في المنمنة العربية في أشكال ورموز ومضمون فكري، فكل ما تحويه من أشكال وعناصر متمثلة بالشخوص والمفردات والزخارف والكتابات بأنواع خطوطها الجميلة المتفردة كانت تسعى إلى خلق نظام تواصلي مركب وليس بسيطا، وإنما يعيد إنتاج الفكرة بأنظمة بصرية متعددة، يؤكد الواحد منها على الآخر في متوالية تتكرر دون توقف فتحيل المعنى إلى شيء من السحر وصورة من الخيال وعبر جمالات متعددة.

ولكن المنمنمة لم تكتف بصياغة تلك الأحداث وفق واقعيتها التي تساعد الذهن على استرجاع مصادره في المعرفة، وإنما صاغته بطريقة تستعرض فيه الوقائع والأحداث على نحو ما، تكون قد حدثت في حلم أحيانا كثيرة، وبالتالي الوصول بالواقعة إلى المشهد الحكائي النادر الذي تحاول هذه المنمنمة تخليده بأبهى حلة.

ولعل قراءة تحليلية سيميولوجية للمنمنمة سيحيلنا إلى الكثير من المعاني والدلالات التي تحتاج إلى دراسات تفصيلية أكثر توسعا، كي تبرز لدينا المحصلة النهائية التي تؤول لنا قيمة الدلالة أو الرمز وطبيعة المعنى من خلال عملية التأويل، خاصة أن هذه العملية وفقا لهيكليات المناهج النقدية الحديثة، أو كما يرى (جادامر) سينتج عنه قراءات متعددة على مستوى المحتوى والمتعة البصرية.

ولأن السيمياء أو السيميولوجيا كما عرفها (فرديناند دو سوسير) عبارة عن علم يدرس الإشارات أو العلامات داخل الحياة الاجتماعية، وهي ذات الفكرة التي يقوم عليها البناء الفكري للمنمنمة (Al-Azri, 2016)، حيث يسعى هذا المنهج إلى اكتشاف البنيات العميقة والأسس الجوهرية المنطقية التي تكون وراء الصورة، فإن السيميولوجيا لا يهمها الصورة الفنية الخارجية بقدر ما يهمها شكل المضمون، فهي دراسة شكلانيه للمضمون، فإنه يبدو أنه من المهم في ضوء ذلك البحث عن قراءة سميولوجية جديدة للمنمنمات في ضوء العناصر الكونية الأربعة، وهو ما تستهدفه هذه الصفحات عبر ثلاثة محاور رئيسية هي:

المبحث الأول: العناصر الأربعة وفكرة نشوئها

لا يمكن أن يكون نشوء فكرة عناصر التكوين الأربعة : الماء، والهواء، والتراب، والنار، قد انبثق فجأة من الفراغ بشكل غير مسبوق في ذهن الفيلسوف الإغريقي انباذوقليس (انبادوكل) 4500 ق.م، فأنا أعتقد أن الفكرة سبقته بدهور، كونها أحد نواتج العقلية الجمعية للبشرية، ولقد تناولها بعده الكثيرون على مدى التاريخ، وأثرت حتى وقتنا الحاضر في إبداع الكثير من الرؤى، فقد اشتغل عليها أبوقراط (4000 ق.م)، وربط العرب بين توازنها واختلالها في الجسم الإنساني والمكونات السبعة: العناصر، والأخلاط، والأمزجة، والأعضاء، والصفات، والوظائف، والأرواح. وربطوا بين تلك العناصر الأربعة : الماء، والهواء، والتراب، والنار، وما يقابل كلا منها من الأخلاط الأربعة وهي الدم، والبلغم، والمرارة الصفراء، والمرارة السوداء، والتي تنتج ما يقابلها من الأمزجة: المزاج الدموي، ثم البلغمي، ثم الصفراوي وأخيرا السوداوي، وهذه الأمزجة هي التي تمثل طبائع الناس (Bali,1991).

وقد صنفت الأساطير قديما استنادا إلى فكرة عناصر التكوين إلى: أساطير لاهوتية تقابل عنصر الهواء، وجسمية تقابل التراب، ونفسية تقابل النار، والأساطير المادية تقابل عنصر الماء.

وإذا نظرنا إليها بعين التدبر سنجد أنها عناصر تكوين كل الأشياء في الكون قد ذكرها الله تعالي في القران الكريم في مواضع عديدة، فنجد أن النار جاءت في المقدمة وهى التي خلق الله منها الجن قال تعالى:

{وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ} الرحمن15

{قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} الاعراف 76

{وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ} الحجر27

{قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} الأعراف12

وبعدها جاء التراب الذى خلق الله منه البشر؛ قال تعالى:

{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} آل عمران59

{قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً} الكهف37

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ} الروم20

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ

وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَة فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} الحج5

ولو نظرنا إلى الهواء فسنجد ذكره في القرآن جاء بلفظ الريح أو الرياح، وهي الهواء المتحرك في الطبقات المحيطة بالأرض، فقال تعالى:

(مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ} إبراهيم 18

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} البقرة 164

أما الماء فنجد أن ما من مخلوق حي إلا ويحتاج إليه، قال تعالى:

{وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْق ا لَكُمْ} البقرة 22

{وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} البقرة 164

{فَلَمْ تَجِدُوا مَاء فَتَيَمَّمُوا صَعِيدا طَيِّبا} النساء 43

{وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ} الأنعام 99

{أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ} الأنبياء 30

لكن كيف لهذه العناصر أن ترتبط بالإنسان؟ قال المختصون بهذا العلم أن الإنسان مكون من العناصر الأربعة بصورة متوازنة، فإن روح الإنسان أو الكائن الحي تمثل عنصر النار، وما يتنفسه يمثل عنصر الهواء، وكل ما يشربه ويأكله يمثل الماء، وجسد كل كائن حي يمثل التراب (من التراب وإلى التراب تعود).

لقد طُورت العلوم الأصلية من خلال المعرفة التجريبية للظواهر الطبيعية وقرب الإنسان من الطبيعة ونفسية الإنسان والأنماط الثقافية ودراسة الطرق المستخدمة لتجريب قوانين الطبيعة والوعي العالمي بشكل مباشر. ومفهومه هو أن كل المظاهر الفيزيائية للوجود تنشأ من نفس المصدر وفي جوهرها إحدى هذه العناصر وهي: الأرض أو الجوامد، والماء أو السوائل، والنار أو إطلاق الطاقة، والرياح أو العناصر الغازية. وقد أضاف عليها بعض الفلاسفة عنصرا خامسا وهو الفراغ أو العدم الذي تتشكل منه جميع الأشياء.

ولكن ما هي هذه العناصر وأين تتمركز؟

أولا: العنصر الترابي – الأرض؛ هي قاعدة هذه العناصر ويرتبط بمقدار حالاتنا وثباتنا ومقاومة التغيير أو الحركة مثل الصخرة. يتمركز العنصر في قاعدة العمود الفقري ويرتبط باللون الأحمر.

ثانيا: العنصر المائي – الماء؛ هو ثاني أعلى مستوى في شخصيتنا البدنية نحن نشعر تحت تأثيره بعواطفنا الخاصة والأجزاء السائلة في الجسم. يتميز العنصر بردود الفعل للتغيرات الفيزيائية والتكيف نحو البيئة المحيطة. فنحن قادرون مثل النباتات على النمو والحركة المستقلة، ونتفاعل مع المؤثرات ومع ذلك نعجز عن السيطرة على بيئتنا، عندما تكون شخصيتنا تحت تأثير العنصر المائي، نتفاعل مع ما نقابله ونتأثر بالعواطف الأثقل ويرتبط باللون الأزرق.

ثالثا: العنصر الناري – النار، وهو ثالث أعلى عنصر. وعندما نكون تحت تأثيره فنحن نتصف بالعنف (والعنف في هذا المعنى يشير إلى الطاقة، فنحن نجرب مشاعر الدفء، وندرك قدراتنا الفكرية. يتمركز العنصر في الطرف الأسفل لعظمة الصدر ويرتبط باللون الأصفر.

رابعا: العنصر الهوائي - أو الرياح، وهو المستوى الرابع ، ونحن تحت تأثيره ندرك تفكيرنا الخاص، بالإضافة للشهامة ومشاعر الحكمة والحب. وأعلى مثال لمبدأ الرياح هم البشر. فنحن قادرون على التأمل وعلى الفهم والحب. ويتمركز العنصر في منتصف الصدر ويرتبط باللون الأخضر (Rastell, 2012).

ولكل عنصر من هذه العناصر مزايا وخصائص:

خصائص العنصر الترابي:

ويمثل العالم الفيزيولوجي لدى الإنسان، أي التواصل بين الإنسان والأرض، وتشمل البيت والمسكن، المال والأملاك، والمأكل والمشرب، والأمن الشخصي والذاتي، والعمل بلا كلل، والصحة ، والصبر، وغيرها.

خصائص العنصر المائي:

يمثل كل ما يختص بالإحساس ويمثل العاطفة والمحبة، والحزن والغضب، والكراهية والفرح والسرور، والإصرار والعزيمة، وغيرها من هذه الصفات التي تختص بالأحاسيس.

خصائص العنصر الهوائي:

يمثل كل ما يختص بالتواصل والاتصال مع الغير، والكلام والنقاش، والثقافة والتربية، والذكاء وقوة الإقناع، والتفكير والحس الروحاني والرؤية فوق الحسية وغيرها.

خصائص العنصر الناري:

ويمثل كل ما في الطاقة والقوة الدافعة للحياة وقوة الخليقة، والإصرار والعزيمة بالغوص في التجارب، والبحث المستمر، وحب الحياة، والكرم وغيرها (Jakubczak, 2001).

ويعتقد الفلاسفة أن حركة الكون تعتمد على تناسق هذه العناصر وهي النار والماء والأرض والنبات والمعادن. ويرون أن هناك علاقات تبادلية بين هذه العناصر التي يحددونها بالماء والخشب والنار والأرض؛ لأن في اعتقادهم أن الماء ينتج خشب النبات، والخشب ينتج النار، والنار تنتج الأرض، والأرض تنتج النبات، وهكذا تستمر هذه الحلقة لإنتاج العناصر الأربعة في ثبات واستقرار واستمرار إلى ما لا نهاية (O'Donohue, 2010).

وإذا نظرنا إلى سيميائية كل واحد من العناصر الأربعة على حدة، نجد أنها تلعب دورا هاما في الدلالات والرموز في الفن والديانات والحياة اليومية، فالنار تضيء وتدفئ، إنها عنصر قوة الإنسان وسموه على العالم الحيواني، ولكنها يمكن أن تنقلب ضده: فالنار تحرق، وهي على علاقة مع الشمس. والماء يطهر وإضافة إلى ذلك فهو مصدر الحياة أو التجدد، ومن هنا كان الماء مصدرا للشعائر الكثيرة في كل الديانات تقريبا وطقس الينابيع المنتشرة جدا. والهواء هو العنصر السماوي، ومن هنا الارتفاع في المسيرة الروحية. والأرض رمز الخصب والخصوبة كذلك، ولها علاقتها مع الولادة والموت، والحيُة هي رمز هذه الثنائية (Hasab alnabi , 1981).

وذلك هو ما يضيفه (باشلارد) وهو يلاحظ أن ما قد ولد في الماء يكتمل في النار، وهذا ما يطبق أيضا على عجينة الخزاف كما يطبق على عجينة الخباز. وغالبا ما يجري تصنيف العناصر الأربعة في زوجين متقابلين، فالنار والماء، يقابلها الهواء والتراب، إذ النار مذكر والماء مؤنث، أو أن له رمزية أنثوية شبه عالمية.

المبحث الثاني: موقف الفلاسفة والفنانين من العناصر الكونية الأربعة

لقد تطرق العديد من الفلاسفة والنقاد والفنانين لموضوع هذه العناصر الأربعة وأثرها في التركيبة البنائية والنفسية للفنان، وكان أهم المشتغلين على هذا الموضوع من الفلاسفة والفنانين هم:

إمبيدوقليس:

إن أول من ذكر وكتب عن العناصر الأربعة كان الفيلسوف اليوناني الإغريقي إمبيدوقليس (490-430 ق.م). وتبناها فيما بعد كل من أفلاطون وأرسطو اللذين يعتبران من أكبر المفكرين حتى يومنا هذا. وقد تصور إمبيدوقليس بأن كل شيء في الكون مركب من أربعة عناصر أساسية لوحدها أو مشتركة بكمية قليلة أو كثيرة وهي: الماء، والهواء، والتراب، والنار (Guthrie, 2002).

أناكسيماندر:

كان من أوائل الفلاسفة الإغريق ما قبل سقراط الذين ظهروا في بداية العصر المحوري، في الفترة من (700 إلى 200 ق.م). حين ظهر كذلك مفكرون ثوريون في الصين، والهند، وإيران، والشرق الأدنى واليونان القديمة. كان أناكسيماندر نصيرا مبكراً للعلم وحاول ملاحظة وشرح جوانب الكون المختلفة، مع اهتمام خاص بأصولها، حيث قال إن الطبيعة تحكمها القوانين تماما مثل المجتمعات البشرية، وأن أي شيء يهدد توازنها لا يدوم طويلا، وأقر بأن اللانهائي هو أصل كل الأشياء. وبإعلانه أن القوى الفيزيائية وليست القوى الخارقة هي التي تصنع النظام في الطبيعة. يعتبر أناكسيماندر أول عالم حقيقي، كما يعتبر أول من استخدم التجريب العلميk وكان أول من وظّف كلمة (أصل الأشياء) في سياق فلسفي. وبالنسبة له كانت مجرد نقطة زمنية، وأصلا ينشأ عنه أي شيء آخر قد يكون.

بالنسبة لأناكسيماندر، فإن هذا العنصر الأصيل لا يمكن تحديده مثل الماء في نظرية طاليس، وليس شيئا وسطا بين الماء والهواء، أو الهواء والنار، فهو أغلظ من الهواء والنار وأكثر ثباتا من الماء والأرض، حيث يدعي أناكسيماندر أن الماء لا يستطيع أن يضم كل التناقضات الموجودة في الطبيعة، مثلا: الماء يكون سائلا فحسب ولا يمكن له أن يصبح جافا، هكذا فلا يمكن له أن يكون المادة الأولية، ولا أي من هذه العناصر الأخرى المذكورة، ويعتقد أن اللانهائي هو مادة تستطيع أن تضم كل تلك التناقضات بالرغم من أنها مجهولة كليا بالنسبة لنا.

يشرح أناكسيماندر كيف تكونت العناصر الأربعة للفيزياء القديمة (الماء، الأرض، الهواء، النار)، وكيف تكونت الأرض وكائناتها من خلال تفاعلاتها معا. ويعتقد بأن الكون نشأ نتيجة لانفصال كل التناقضات التي يحويها العنصر الأول عن بعضها البعض، وأن كل الأشياء الميتة تعود إلى ذلك العنصر الذي أتت منه هو اللانهائي (Muttalib, 1995).

أفلاطون:

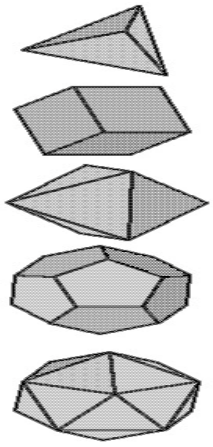

شكل1 الأجسام الصلبة الأفلاطونية

أما أفلاطون فقد أكد على أن العناصر الأربعة الأساسية في العالم هي الأرض والهواء والنار والماء. وقام بربط هذه العناصر إلى الأجسام الصلبة الأساسية، التي سميت بالأجسام الصلبة الأفلاطونية على النحو التالي: المكعب مع الأرض، والعشروني الوجوه مع الماء، ورباعي الوجوه بالنار وثماني الوجوه مع الهواء، هذه هي الأشكال متعددة الأسطح الوحيدة الممكنة التي أوجهها تكون مكونة من مضلعات منتظمة، فالرباعي رباعي الأسطح بأربعة مثلثات متساوية الأضلاع، والمكعب بستة مربعات، والمجسم الثماني بثمانية مثلثات متساوية الأضلاع، والاثني عشري السطوح ب12 خماسي الأضلاع منتظمة، والعشروني الوجوه بعشرين مثلث متساوي الأضلاع.

أما العناصر المرتبطة بالأجسام الصلبة الأفلاطونية فهي:

المكعب (cube) إلى الأرض، لأنه الأكثر سكونا بالنسبة لبقية الأجسام وذو الشكل الاكثر تحفظا، عشروني الوجوه (icosahedron) إلى المياه، الأقل حركة، رباعي الوجوه (tetrahedron) للنار الأكثر حركة، ثماني

الوجوه (octahedron) إلى الهواء، لأنه متوسط الحركة. وقد كتب أفلاطون عن التكوين الخامس الذي هو الاثنا عشري الوجوه (dodecahedron) بوجوهه الخماسية المنتظمة. الوجوه الاثنا عشر تتصل بالكواكب وبالكون بأسره، كما يوضح شكل (1).

كما ذكر أفلاطون أن النماذج الأصلية، أو النواة النقية ما هي إلا انعكاس للعالم المرئي. وإن الحواس لا يمكن أن تدرك هذة المملكة الميتافيزيقية، لذا تستخدم الهندسة هذة النماذج لتوضيح وصف هذه الأفكار. فالهندسة تفسر الوحدانية الكامنة وراء جميع الأشكال هندسية، والعلاقة التي لا تفصل الجزء من الكل، وباستمرار تذكر الوحدة والأصل في خلق جميع الأشياء (Muttalib, 1995) .

أرسطو

سلَّم أرسطو أنه يوجد في الأساس مادة أوّلية واحدة فقط، ولكنها كانت بعيدة جدًا ومجهولة جدًا لدرجة تمنعها من أن تكون أساسا لفلسفة المادة؛ لذلك، قبل عناصر إيمبيدوكليس كنوعٍ من العناصر الوسيطة بين هذه المادة التي لا يمكن تحديدها والعالم الملموس. وهذه القدرة الفطرية على اختزال الأسئلة الكونية إلى أسئلة يمكن الإجابة عنها هي أحد الأسباب التي جعلت أرسطو فيلسوفا مؤثِّرا للغاية. شارك أرسطو أناكسيماندر في وجهة النظر القائلة بأن خواص الحرارة والبرودة والرطوبة والجفاف هي مفاتيح التحول، وأيضا مفاتيح خبرتنا بالعناصر. فلأنَّ الماء رطب وبارد، يمكننا الشعور به. ففي علم الوجود لدى أرسطو، مُنح كل عنصر من العناصر اثنتين من هذه الخواص، لكي يصبح ممكنا تحويل كل عنصرٍ منها إلى آخر عن طريق عكس واحدة من هذه الخواص. فيصبح الماء الرطب البارد أرضا جافة باردة من خلال تحويل الرطوبة إلى جفاف. تابع أرسطو فيما بعد نظرية أفلاطون بإضافة أربعة طباع أساسية لهذه العناصر: اثنين فاعلين: البرودة والحرارة. واثنين منفعلين: اليبوسة والرطوبة. لذلك مزج طبع فاعل مع طبع منفعل على مادة موحدة يؤدي إلى ظهور واحد من العناصر الأربعة . لذا فإن التراب أو الأرض باردة يابسة، الماء بارد رطب، الهواء حار رطب، النار حار يابس، كما يوضح شكل (2) (Blackson, 2011).

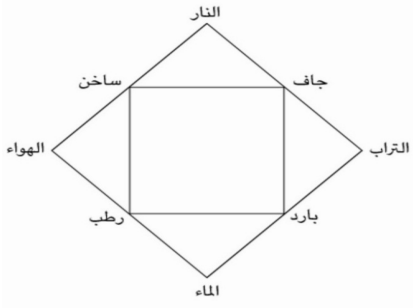

شكل (2) رباعية ارسطو

جابر ابن حيان:

من العلماء والفلاسفة العرب الذين نبغوا في مجال الكيمياء وأصبح أبا الكيمياء؛ فقد وضع الأسس لبداية الكيمياء الحديثة، وقد أطلقت عليه العديد من الألقاب، منها (الأستاذ الكبير) و(شيخ الكيميائيين المسلمين) و(أبو الكيمياء). أحدث جابر بن حيان تغييرا جذريا في علم الكيمياء عندما أجرى دراسته العلمية على العناصر الأربعة التي شغلت السابقين فكرة تحويلها، وقد تأثر العلماء العرب والمسلمين الأوائل بنظرية العناصر الأربعة التي ورثها علماء العرب والمسلمين من اليونان. لكنه قام بدراسة علمية دقيقة لها؛ أدت هذه الدراسة إلى وضع وتطبيق المنهج العلمي التجريبي في حقل العلوم التجريبية. فمحاولة معرفة مدى صحة نظرية العناصر الأربعة ساعدت علماء العرب والمسلمين في الوقوف على عدد كبير جدا من المواد الكيماوية، وكذلك معرفة بعض التفاعلات الكيماوية فقد ساد في الحضارات القديمة فكرة تحويل المعادن الرخيصة إلى معادن نفيسة؛ وذلك لأن العلماء في الحضارات ما قبل الحضارة الإسلامية كانوا يعتقدون أن

المعادن المنطرقة مثل الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والقصدير من نوع واحد، وأن تباينها نابع من الحرارة والبرودة والجفاف والرطوبة الكامنة فيها وهي أعراض متغيرة نسبة إلى نظرية العناصر الأربعة، لذا يمكن تحويل هذه المعادن إلى بعضها البعض بواسطة مادة ثالثة وهي الإكسير، ومن هذا المنطلق تخيل بعض علماء الحضارات السابقة للحضارة الإسلامية أنه بالإمكان ابتكار إكسير الحياة أو حجر الحكمة الذي يزيل علل الحياة ويطيل العمر. ومن هنا اكتسبت الكيمياء سمعتها السيئة واعتبرت أعمالها من ضروب السحر وأعمال الشياطين. وجابر بن حيان ألصقت به تهمة السحر بعدما احتال على مسألة التحويل، فهو تمكن فعلا من تحويل المعادن إلى ذهب ولكن بطريقة مبتكرة اعتمدت على تلبيس المعدن بطبقة رقيقة من الذهب، وثبتت عليه التهمة بعدما جعل الارتباط وثيقا بين تلك المعادن وما يحيط بها من طبقات نفيسة، فطريقة الفصل بينهما صعبة ومعقدة ولا يعرفها سواه، وكل ما وصلنا عنها إنها تتم باستخدام ماء الذهب. فحين أجرى ابن حيان دراساته العلمية لفك لغز العناصر الأربعة توصل إلى أهم الإنجازات التي سجلت باسمه، حيث وضع المنهج العلمي التجريبي لأول مرة في حقل العلوم، وتعرف على عدد كبير من المواد والتفاعلات والعمليات الكيميائية، منها التقطير، والتسامي، والترشيح، والتبلور، والملغمة، والتكسيد، التي أصبحت مقومات الكيمياء الحديثة (Bodair , 1980).

جاستون باشلار:

قدم باشلار جهدا متميزا ضمن سعيه لإيجاد قانون لدراسة الخيال، ينبثق من الخيال ذاته وليس من عالم المنطق والاحتراس والحصافة العلمية، فانتهت محاولته إلى هجر محور الموضوعية والاتجاه إلى (محور الذاتية) الذي تتجمع حوله في الحلم مختلف أنماط التقييم البدائي السابق للمفاهيم الفلسفية، فكان اكتشافه الجوهري توصله إلى أن تحليل الخيال تحليلا نفسيا لا يمكن إلا أن يكون دراسة سيكولوجية طبيعية تتجمع فيها القيم تلقائيا حول العناصر الأربعة، فكانت حركة باتجاه البحث عن أدق دقائق حلم الإنسان بالعناصر الأربعة.

استعار باشلار من الفلاسفة الذين أرسوا التمييز بين العناصر الأربعة الطبيعية، وهي التي حددت تكوين مؤلفاته (التحليل النفسي للنار 1937)، و(الأرض وأحلام الإرادة 1947)، و(الأرض وأحلام السكون 1948)، و(الماء والأحلام 1940)، و(الهواء والأحلام 1942)، ومن دون شك فإن اهتمامه بالكيمياء القديمة الذي وُلد لديه بفضل يونغ، كان هو الذي حدد اختياره هذه الموضوعات. فقد استطاع باشلار أن يجد محددات نفسية طبقا إلى العلاقة المتخيلة بين العناصر الأربعة. ويوضح باشلار في كتابه (الماء والأحلام) أن بإمكان حلم اليقظة أن يتوصل بقدر كاف من الثبات كي يحقق كتابا مكتوبا، كي لا يكون مجرد فراغ لساعة هاربة. وأن يعثر على مادته أو على عنصر مادي فيمنحه جوهره الخاص به، وقاعدته الخاصة به، وشاعريته الخاصة به. وقد أخذ الموضوعيون هذه الأفكار من بعده، مثل (المياه الصافية)، و(المياه الثقيلة) في (الماء والأحلام). وهناك (حلم الطيران) و(السقوط المتخيل) و(الشجرة الهوائية) كما كانت في كتاب (الهواء والأحلام) فقد كانت هذه التجسيدات الجوهرية للقيم النفسية، قد قدمت ميدانا معجميا للنقد الموضوعاتي من بعده. وقد لاحظ باشلار الطابع المحجم لهذا التصنيف، الذي يتجسد في هذه العناصر الأربعة ورأى فيه تمييزا تبسيطيا لإدراك تنوع التقييمات التخيلية. لهذا عمل على تغيير هذا الإطار الشكلي الأرسطي عندما اعتبر التراب مادة مبهمة؛ لأنها في الوقت الذي تدعو إلى التقوقع فإنها تدعو إلى الانفتاح. وكما أن العناصر غير مستقلة إنما تتواصل فيما بينها، فخصص فصولا للعناصر المختلطة مثل (الماء والنار)، و(الماء والليل) و(الماء والأرض)، وهكذا أراد باشلار أن يتجاوز هذه الترسيمة التحجيمية لأرسطو، وقد بدا تغيره واضحا من خلال التركيز على مفهوم حركي للضوء، وذلك لإدراكه أن الخيال منفتح على اللانهاية بشكل جوهري وهو هارب من جهة أخرى، ويدين باشلار من جهة أخرى دعوة بودلير إلى

السفر، فلم يعد هذا السفر نوعا من اللجوء إلى الصورة وهي في حركتها الإبداعية. ونحن نحاول العثور على تماسك الصور وتجميعها، ومن ثم محاولة العثور على الخط الكلي العميق المسؤول عن تدفقها. فهذه الرحلة الكائنة في الخروج على النموذج المتكرر أجبرت باشلار -في مجال الصورة- عن البحث الدائم عن ذروة الصورة التي تتشظى في الخيال وتجبرها على التلاحم والانسجام طوال مشروع الكتابة، ويحاول -من أجل استبعاد شبكة المؤثرات الخارجية عليه- أن يتمثل موضوعه بواسطة النظر بعمق ونفاذ إلى إدراك الصورة وتخيلها (Muttalib, 1995).

شاكر حسن آل سعيد:

لقد ألقت عناصر الكون الأربعة بظلالها على تفكير الناقد العراقي شاكر حسن آل سعيد، ففي كتابه (أنا النقطة فوق فاء الحرف)، صنّف أعمال الرسم، في مستوى المادة المستخدمة إلى: أعمال مائية تستخدم فيها ألوان الماء، وترابية يستخدم فيها التراب والرمل وما إلى ذلك من مواد مشابهة كعنصر بناء رئيسي لمواد اللوحة، ونارية باستخدام تقنية الحرق، وأخيرا أعمالا هوائية باستخدام تقنية النفخ في تثبيت الألوان على سطح اللوحة، من حيث مرجعيته في العالم على أربعة أنماط هي: (الترابي، والمائي، والهوائي والناري) بالتقابل مع عناصر التكوين: التراب والماء والهواء والنار، ثم استطرد ليضيف فكرة ثالثة هي: إن استخدام مهارات إنتاج النص داخل الأثر الفني كترميز للنص المحيطي بواسطة الأثر، فهو يربط فكرة العناصر إلى مدونات العراق القديم فيقول: "إن بالمستطاع تطوير مبدأ الاحتكام للعناصر الأربعة (وهي المواد الأولية للخليقة) وقد ظهرت بوضوح في الفكر الآشوري و(تنصيصا) لمبدأ التربيع الخصوبي ما قبل السومري، ثم أقتبسها الفنانون الأركولوجيون ممن ارتبطت بحوثهم في مجال الرسم وعلى رأسهم (تابيس ودي غوتكس) فأصبحت الألوان (البذور الأفقية للتوليف) هي (الألوان المائية التي ستسيل على سطح اللوحة لتوحي بجداريتها: الألوان والتي تظهر بكثافتها موحية بأرضيتها الألوان الهوائية أو المنفوثة ثم الألوان المحروقة وهي التي نوازي في وجودها وجود بعض الصخور المتبلورة والمتحولة في علم الطبقات الأرضية".

ويعد شاكر حسن آل سعيد من أكثر الفنانين تنكرا لقيمة الشكل في الرسم، وفي التنظير له معا، حيث يغترف من الشكل الأول للمادة (الهيولى) ليؤكد أنها -في زاوية العمق- المبدأ القادر على عدم الاكتراث بالتشكل، فتقترب لوحته من كتابات ورسوم الكهوف الأولى قبل ظهور الأبجديات "في محاولة للاقتراب فيها من الفكر الرياضي واللغوي والرمزي وكذلك بمثابة العودة بالبنية اللغوية إلى أصولها الأولى، انه يتجه مباشرة إلى جوهر العناصر الأربعة من دون اهتمام بإمكانية تشكلها، وقد يقترب من الصور المجهرية للمادة" (Al Said, 1998).

إسماعيل خياط:

إن تجربة اسماعيل خياط اعتمدت على منهجية تنبع من الخيال لدراسة الخيال ذاته، فقد أضحى هذا الابستمولوجي بعيدا عن العقلانية الديكارتية، فيلسوفا للخيال وحالما بالكلمات النابعة منه، فقد كان يسخر دائما من خرافة الحصافة العلمية فيما يتعلق بدراسة الخيال، وكان يأمل في تحقيق قراءة للخيال، تشكل عودة إلى المصادر الأكثر عمقا والتي تنبع من خلال تأملاته في التكوين المادي للصورة، وانصب جهده في استعارة فكرة العناصر الطبيعية الأربعة (النار، والتراب، والماء، والهواء)، حيث استطاع أن يجد محددات نفسية طبقا إلى العلاقة المتخيلة بين تلك العناصر، ليكون بإمكان حلم اليقظة أن يعثر على مادته أو على عنصر مادي فيمنحه جوهره الخاص به، وقاعدته الخاصة به، وشاعريته الخاصة به.

لقد تفرد اسماعيل خياط بأسلوب خاص اعتمد على عناصر التكوين الأربعة: الماء والنار والتراب والهواء، وانبهارا بفكر باشلار المؤسس على دراسة الخيال اعتمادا على تلك العناصر ركز في تجاربه الفنية على عنصر التراب، ومأوى الإنسان الأخير، ليشكل منه عالمه، التراب الذي هو اكثر العناصر وفرة في الطبيعة، وأكثرها رمزية وتجريدا، فكان يستل من وحي المتحجرات، وصخور الجبال وتضاريسها، حلما أحمر

بلون صدأ الصخور، ويهيمن في رسوماته عناصر الهيولي (المادة والعنصر والطينة) والصورة (الهيئة والشكل). وهذان العنصران يرتبطان بوحدة لا انفصال لها حيث يعتبر الصورة شكلا وجوهرا، وترجمة مباشرة للمادة، هذا الفكر الذي يعد أهم التطورات الفكرية التي هيمنت في عصرنا الحاضر على الفهم الحداثي للفن التشكيلي. فقد أسس اسماعيل خياط عالمه التشكيلي -فكريا وتصميميا- على متضادات لا نهائية تمتد على مرمى البصر، هي: بقعة وخط، ضوء وظلام، موت وحياة، تشخيص وتجريد، جنون وعقلانية، حركة صراع وسكون، جمال وقبح، رعب وسكينة، رقة وخشونة، بدائية ومعاصرة، واقع وحلم، كلها تؤلف مكونات ذاكرته بما ترسب فيها من أشكال نسيج صخور شمال العراق حيث يعيش وبشكل يجعلها تجربة باطنة، يمثل العماء فيها مرتبة التمثل الخيالي أو ما يسميه (الخيال المطلق) (Al-Abd, 1990).

المبحث الثالث: رؤية سميولوجية لفن المنمنمات الإسلامية وعلاقتها بالعناصر الأربعة

المنمنمة هي صورة فنية صغيرة الحجم، رسمت في كتاب من أجل توضيح المضمون الأدبي أو العلمي أو الاجتماعي أو غير ذلك من الموضوعات التي حفلت بها الكتب والمخطوطات في العصور الوسطى، وتعد المنمنمات صورا تسجيلية للحياة والبيئة والعادات والمعتقدات والطقوس والأحداث التاريخية والعمارة والزي والفنون، فضلا عن قيمتها الفنية التي تطورت عبر التاريخ.

ومما لا شك فيه أن العقيدة الراسخة فرضت في روحية الإنسان المسلم، مبدأين: الأول هو تحوير الواقع، أي تحوير معالمه الخاصة وتعديل نسبه وأبعاده وفق مشيئة الفنان، والثاني هو تجريد الشكل والواقع أي الابتعاد عن تشبيه الشيء بذاته. أما الباعث على التحوير يرجع إلى الشعور بتفاهة الوجود الأرضي والانشغال المستمر بالوجود الأزلي، فالفنان لا يعير الوجود والأشكال اهتماما كبيرا في رسمه، فهو يصورها بكثير من التبسيط والبدائية، دون أن يسعى إلى إضافة الوسائل التي تقرب هذه الأشياء والوجوه من حقيقتها. يقول درمنغايم "إن ظهور الفن التجريدي هو نتيجة لرغبة الفنان في أن يعبر عن الجوهر مما دفعه إلى تجاوز الواقع العرضي" (Malkawi, 2013)، والخطاب الإسلامي يتعارض مع النحت والتشبيه الفني، ورغما عن ذلك لم يقف الفنان الذي كانت تشده طاقاته الفنية للتنفيذ والتعبير عما كانت تصبو إليه نفسه عبر هذه الفنون، غير مستسلم لذلك التحريم فابتكر أساليب أخرى للتعبير وتفريغ طاقاته الإبداعية والفنية. فكان للفنان المسلم دور كبير في ابتكار وخلق أساليب فنية جديدة عبّر بواسطتها عن مكامن نفسه وعقله وإرهاصاتهما بأعمال إبداعية تجسدت بأشكال وطراز فيه الكثير من الإبداع الفني والجمالي، ومختلف عما كان العرب معتادين عليه سابقا. وتعد المنمنمات العربية من ابداعات الفنان المسلم التي اعتمدت على الرمزية والتجريد كوسيلة تعبيرية تفسيرية معينة للكون والوجود، حيث استطاع الفنان المسلم أن يصوّر الإنسان بشكله ومضمونه بما يمثله هذا المخلوق الصغير من عالم كبير ليس له نهاية، وبفلسفة روحية تلاقت مع مبدأ تحريم التصوير والتشبيه في الإسلام.

ولئن عرفت الحضارات المصرية القديمة والكلاسيكية (اليونانية والرومانية) الرسم والتصوير فالمدرسة الإسلامية جعلت من هذه التصاوير مدرسة فنية لها أسلوبها وفلسفتها دُعيت بفن المنمنمات، التي لا ننكر تأثر الفنان المسلم فيها بالفلسفات والعقائد السابقة للإسلام وانعكاس بعض من فكرها على أعماله وأسلوبه الفني.

وقد تجلت الرمزية في جميع أنماط ومدارس هذه المنمنمات بتأكيدها على توزيع بناء الأشكال في العمل الفني داخل شكل المربع والدائرة والعلاقة الجدلية بينهما، فالمربع يمثل العناصر الأربعة المكونة للطبيعة في الفلسفة الصوفية وهي النار والهواء والماء والتراب، والدائرة تمثل الكون ككل.

وفي إعادة قراءة المنمنمة الإسلامية قراءة سيميائية نجد أن العناصر الكونية الأربعة التراب، والهواء، والماء، والنار، تدخل ضمن تركيب وبنية المنمنمة في الشكل والمضمون، وهو تحليل مزدوج يتناول العلاقة

بين الأفكار من جهة، والأشكال المشار إليها من جهة ثانية، وهو ما تنطوي عليه المنمنمة، فكل ما تحويه من أشكال وعناصر متمثلة بالشخوص والمفردات والزخارف والكتابات بأنواع خطوطها الجميلة والمتفردة كانت تسعى إلى خلق نظام تواصلي مركب وليس بسيطا يرتبط بالعناصر الأربعة. فمن ناحية المضمون، لعل أبرز الأساليب التي عبر من خلالها الفنان في المنمنمات كان أسلوب فن الرقش، وهو الرسم الذي يعتمد على أشكال هندسية لعب الفرجار فيها دورا كبيرا، فهي تشكيلات ثلاثية ورباعية وخماسية مع مضاعفتها، وحور في كل شكل حتى لم يعد لأنواع هذه التشكيلات حدود، وهكذا اكتشف الفنان عالما جديدا من الأشكال الهندسية التي حمّلها دائما معان روحية تجلت في الأشكال التي ترمز إلى القدرة الإلهية بالإضافة إلى المعاني الفنية التي تجلت في روعة التخطيط وتظافره، وفي روعة التلوين وتنسيقه. يقول (غرابار) "ليس الرقش العربي مجرد زخرفة، بل كان له وظيفة رمزية، ففي جميع أشكال الرقش التي نراها سواء كان هندسيا أو نباتيا يتبين أنه قد أخضع كليا لمبادئ تجريدية هي في قمة جميع مراتب التعبير الجمالي الإسلامي، فنحن نقف أمام بنية متحركة وليست ساكنة، وأمام قالب يولد جملة تكوينات متآلفة، فالعناصر الزخرفية لا يمكن وصفها كوحدات منفصلة أو كيانات طبيعية خافية على أبصارنا، حيث نرى العنصر الواحد في اللوحة قد انفصل كي يصبح لوحة مستقلة لا علاقة لها بالشيء في ذاته، وهذا ما يسمى بالرقش العربي". ويشير ماجد حسن في مقاله عن الفن الإسلامي بأن الرقش العربي يحتوي على أسلوبين الأول: أسلوب (الخيط) كما يوضح شكل (3)، وهو عمل هندسي محض يقوم على تفريعات واشتقاقات للأشكال الهندسية الأولى، المثلث والمربع، والدائرة، وهو يعتمد على مضمون ثابت، وليس الطابع التجريدي فيه إلا كي يكون الشكل مطابقا للمفهوم المطلق الذي يتضمنه، فهو يعتمد على الحدس المجرد من جميع المعطيات الحية والبعيدة عن العقل الرياضي وقد تم استخراج المثلث من الدائرة بعد تقسيم محيط الدائرة بالفرجار. كما تم رسم النجوم في الرقش على مقياس الدائرة واشتقاقا منها، انطلاقا من الدائرة القدسية، التي ترمز للكون كما ترمز إلى بيضة الحياة. ومن تطابق نصفيّ الكون تتشكل النجمة السداسية عن تشابك مثلثين متعارضين، تعبيرا عن تداخل السماء والأرض رمزا إلى الوجود الواحد. حيث يرمز المثلث الهرمي المقلوب للأسفل للوجود الإنساني الآخر. والنجمة الخماسية نجمة فيثاغورس التي ترمز إلى جسم الإنسان الكامل. وبينما المسلمون كانوا يقدرون النجمة الثمانية، المؤلفة من تداخل مربعين، فالمربع الأول يعبر عن القوى الطبيعية الأربعة : الهواء والماء والتراب والنار، والمربع الثاني يعبر عن الجهات الأربعة: الشمال والجنوب والشرق والغرب. وقد نفذها المسلمون كعنصر أساسي في الرقش العربي والهندسي.

والثاني أسلوب (الرمي) كما يوضح شكل (4)، وهو عمل تغلب عليه العفوية والاسترسال، مستوحى من النباتات وعروقها. فالرقش هو السعي وراء الجوهر الخالد، فيبدو على شكل تكرار، وأخرى على شكل وميض متناوب. فيظهر العمل الفني في صورة واعية محسوسة. يقول التوحيدي "الصورة هي التي يخرج بها الجوهر إلى الظهور". وهو يقسم المراحل الإبداعية لمرحلتين: الأولى هي مرحلة التصوير الروحي وهي المرحلة التي تتوضح فيها حدود التجلي الاحساسي عند الفنان. والثانية هي مرحلة التصوير العقلية وهي تتجسد فيها التصورات الحدسية وتتوضح فيها حدود البراعة والفطنة في مقدرة التصوير. وعلى هذا الأساس نعتبر أن الفن يقوم على معنى الحدس، إذ عن طريقه يمكن إدراك الجوهر الخالد، والحدس يختلف عن الإحساس.

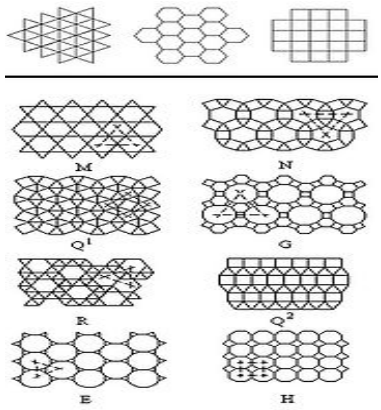

شكل (3) أسلوب الخيط في الرقش

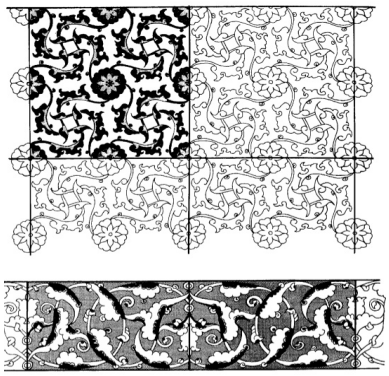

شكل (4) أسلوب الرمي في الرقش

إن الناظر لأي منمنمة يكاد يرى بوضوح التركيبة البنائية القائمة على أساس مجموعة من التراكيب المتداخلة تدور حول المربع والدائرة والمثلث، ولعل هذا الأساس جعل هذا النوع من الفن يقدم عدة مفاهيم مختلفة ربطت هذه العناصر التشكيلية مع بعضها البعض، فهو يقدم التفرد في الوحدة الهندسية، ثم التنوع في تعدد الوحدات والألوان، ثم التلاحم في تداخل الوحدات مع بعضها، ثم التتالي في تتالي الألوان والوحدات. وبذا نجد أربعة مفاهيم متفرقة إلا أنها تنسجم في إطار واحد عام يمثل العناصر الأربعة، فاللوحة شكل مؤلَّف أو مركَّب تحضر فيه وجهة نظر الفنان المسلم الذي يتحكم في رؤيته للكون والعالم من خلال نموذج إيماني كامن وكامل هو النموذج الإسلامي.

وإذا ما تطرقنا إلى كل من هذه العناصر التشكيلية نجد أن كلا منها تعمل بشكل متكامل ومتراكب ومتقاطع فهي وحدة بلاغية مرئية، فاللوحة شكل مؤلَّف أو مركَّب تحضر فيه وجهة نظر الفنان المسلم الذي يتحكم في رؤيته للكون والعالم نموذج إيماني كامن وكامل هو النموذج الإسلامي.

أما من ناحية الشكل الفني للمنمنمة وعلاقتها بالعناصر الأربعة نجد أن هناك بعض الملامح التي تتميز بها المنمنمات عامة عند كل الفنانين، وقد لا يكون للنص المكتوب أثر مباشر على هذه الملامح التي وسمت كل فن المنمنمات في الحضارة الإسلامية. لذلك فالهدف أيضا هو لمس ما وراء هذه الصورة المرئية المشهدية، وما تحوي بداخلها من مجموعة علاقاتها المركبة والمتداخلة بين مختلف المخلوقات، من بشر أو حيوان أو نبات، وذلك بعيدا عن النص ارتباطا بالعناصر الأربعة.

فإذا نظرنا لمعظم هذه اللوحات، وجدنا أنها تعمل كلية في التأكيد على هذه العلاقة الواضحة داخل عناصر اللوحة الداخلية المنعقدة بين الإنسان والنبات والحيوان والبيوت وبين التراب والهواء والماء والنار (عالم اللوحة). ويظهر أسلوب فن المنمنمات الإسلامية المحاطة بالزخارف، والعمائر الإسلامية، والملامح العربية، والأزياء التقليدية، والطبيعة الشرقية تكسوها ألوان زاهية جّذابة لا تخلو من وجود رسومات للهواء أو السحاب ورسومات للماء أو البحار والأنهار ورسومات للنار أو الشعلات المضيئة، وكذلك رسومات للتراب والأرض والنبات والأشجار، فكل المواضيع في حد ذاتها تشي بالمدلول نفسه، وذلك من خلال مكونات اللوحة جميعها التي تجسد أهم المظاهر الإبداعية لما يتضمن من معانٍ وفلسفة جمالية متميزة لا تحمل معنى بيانيا أو لفظيا، وأنما ينقل الشكل الهيولي والجوهر لأشياء واقعية.

وقد برز في تاريخنا العربي والإسلامي عدد كبير من المدارس الفنية التي ازدهرت بفن تصوير المنمنمات العربية في الدول الإسلامية، وظهرت الأساليب المختلفة ذات الطابع الذي استمر كخصوصية ثابتة لفن التصوير الإسلامي التشبيهي، فوصل في هذا الفن إلى تحقيق لوحة فنية متفردة موضوعا وشكلا

ومعالجة، بل إلى حد الإعجاز والدهشة في أحيان كثيرة؛ لكثرة ما فيها من حشود وعناصر مرسومة بدقة شديدة، وبألوان زاهية، وحركات مختلفة، عميقة التعبير عن موضوعاتها المأخوذة من الواقع تارة، ومن الحكايات والأساطير الشعبية تارة أخرى. وإن اعتبرها البعض نماذج تزويقية وسموها المزوقات أحيانا، إلا أن حقيقة الأمر لم تكن تحمل وظيفة تزيينية فقط إنما نقلت فكرا ماديا وروحيا عن الإنسان والكون وحركة الحياة الدالة على الوجود. ونتناول هنا بين هذه الأسطر أهم التصاوير والمخطوطات وأشهر هذه المدارس التي قدمت توليفا وسيطا بين جوهر ثابت للكون ووجود الكون المادي المتغيير، وهذة النماذج الفنية التي توضح وتصف الوحدانية الكامنة وراء جميع الأشكال الهندسية، والعلاقة التي لا تفصل الجزء والكل، وباستمرار تذكر الوحدة والأصل في وجود العناصر الكونية الأربعة في وجود جميع الأشياء:

المدرسة البغدادية (القرن 7 هـ/ 13 م):

كانت المدرسة الرائدة في فنون المنمنمات وأكثرها شهرة، وقد استقرت تسميتها على مدرسة بغداد لما كان لبغداد من قيمه حضارية فى تلك المرحلة من التاريخ التى تمتد ما بين القرنين السادس والثامن للهجرة 1200-1400 م، وما يزال بعض المؤرخين من المستشرقين يميلون إلى تسميتها بمدرسة ما بين النهرين أو المدرسة السلجوقية أو المدرسة العباسية. تميزت رسوماتها بعدم العناية بالناحية التشريحية للأشكال وإهمال البعد الثالث ومن أبرز خصائص مدرسة بغداد في التصوير عدم العناية بالنزعة التشريحية أو التقيد بالنسب الخارجية للأشكال المرسومة كالتي سعى إلى تأكيدها الفنان الإغريقي، ومن أعلام الفنانين الذين قامت على أكتافهم هذه المدرسة هما (عبد الله بن الفضل) و(يحي بن يحي بن الحسن الواسطي)، كما يوضح شكل (5) (Bamuk , 2011).

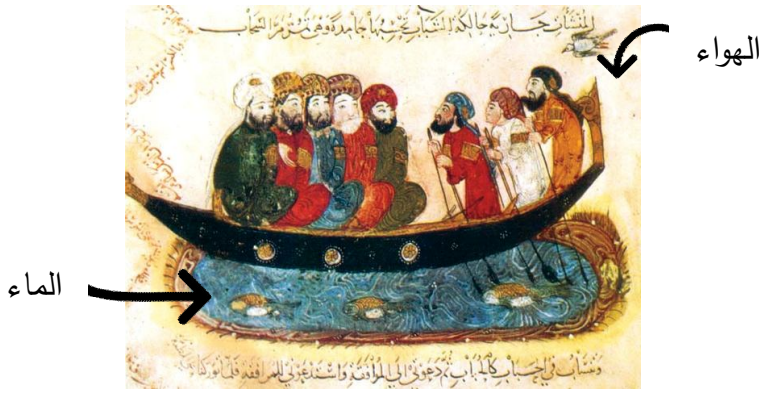

شكل (5) من رسومات الواسطي لمقامات الحريري

المدرسة الإيرانية المغولية (8هـ/ 1 م):

وقد ورثت هذه المدرسة أساليب مدرسة بغداد واستفادت من هروب الفنانين أو هجرتهم لا سيما بعد دمار بغداد. وتضمنت رسوماتها تاريخ السلاطين المغول والإيلخانيين في تبريز وسمرقند. ومن خصوصياتها أنها شملت بعض التأثيرات الواقعية في المناظر الواردة من الرسم الصيني، وأكثر صور هذه المدرسة ما وجد في مخطوطات مثل (الشاهنامه) وكتاب (جامع التواريخ) للوزير رشيد الدين المتوفى في بداية القرن 14 م، وكذا مجموعة رسمت لنسخة من كتاب كليلة ودمنة في منتصف القرن 8هـ - 14 م، كما يوضح شكل (6) (Bamuk , 2011).

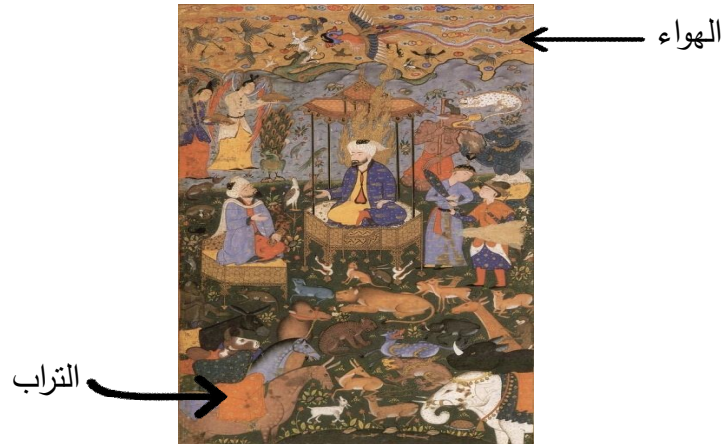

شكل (6): من رسومات الشهنامة، الملك سليمان، Persischer Meister - The Yorck Project (2002)

المدرسة التيمورية ومدرسة هراة (9هـ/ 15 م):

وتطورت إبان فترة تيمورلنك في مدن تبريز وسمرقند وهيرات، بعد أن حمل معه مجموعة من الرسامين من الشام والعراق عام 1403م. ومن أهم مصوريها أمير شاهي وغياث الدين، ومن أبرز أعمالها كتاب (الشاهنامه) للفردوسي، كتبه (لطف الله بن يحي بن محمد) في شيراز سنة 796 هـ/ 1393 م، و(مجموعات النجوم) لعبد الرحمن الصوفي، الذي كتب للسلطان التيموري (أولوغ بك بن شاه رخ) في مدينة سمرقند قبل عام 841 هـ/ 1437 م، و(معراج نامه) كتب (لشاه رخ) في مدينة هراة سنة 840 ه/ 1436م كما يوضح شكل (7) (Karimov , 2015).

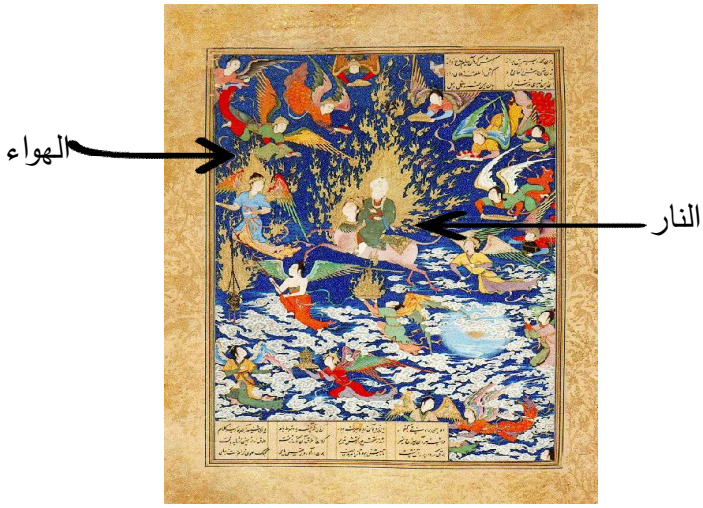

شكل (7): معراج نامه لشاه رخ، http://www.mirror.org/greg.roberts/MirajB1.jpg

مدرسة بهزاد:

ويعد بهزاد رائد هذه المدرسة ومن أبرز أعماله كتاب (بستان) للشاعر الإيراني (سعدي)، وهو محفوظ في دار الكتب المصرية وفيه ست صور من عمل (بهزاد)، وعلى أربعة منها إمضاؤه. وقد كتب هذا المخطوط سنة 893 ه/ 1488 م للسلطان (حسين بيقرا)، وكذلك المصور قاسم على الذي نجد إمضاءه في مخطوطات (المنظومات الخمسة) لنظامي المؤرخة 899 هـ/ 149 م، كما يوضح شكل (8) (Fontana,2015).

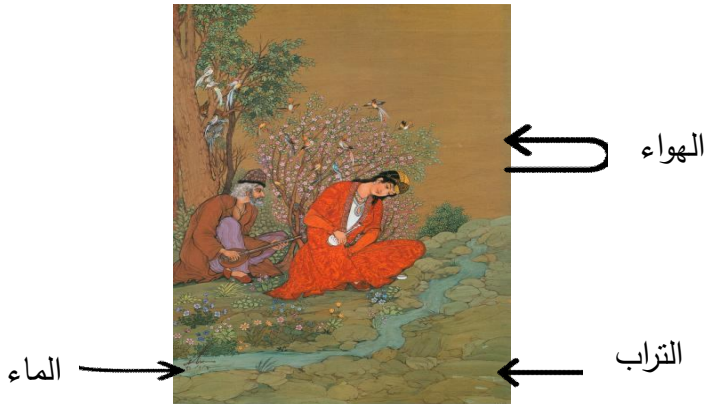

شكل رقم(8): حسين بهزاد، نسيم الربيع، المصدر: http://islamoriente.com/Publicaciones

مدرسة بخارى (10 هـ/ 16 م):

وقد تأثرت بالمدرسة التيمورية وتأثرت ببهزاد وتلاميذه، وكثرت بها الموضوعات العاطفية والشاعرية، ومن أشهر الفنانين في هذه المدرسة (محمود مذهب)، أما عن أبدع منتجات هذه المدرسة فهي صورة من مخطوط (المنظومات الخمس)، وهذا المخطوط أُلف في بخارى سنة 944 هـ/ 1537 م بقلم الخطاط المعروف (مير علي)، وكذلك منظومة (خسرو وشيرين) و(مخزن الأسرار) لنظامي الكنجوي كما يوضح شكل (9) (Fontana,2015).

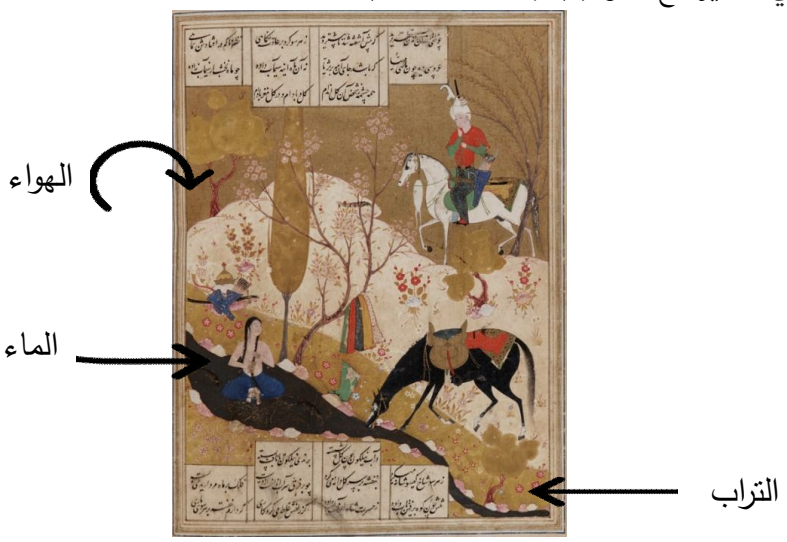

شكل (9): خسرو وشيرين لنظامي الكنجوي، http://www.wikiwand.com

المدرسة الصفوية:

ومن أبرز أعمال فنانيها كتاب (منطق الطير) الذي ألفه فريد الدين العطار في مستهل القرن الثالث عشر. وقد أضيفت إليه لوحات مصورة في القرن الخامس عشر، كما صورت في القرن السادس عشر النسخ التي أنجزت في القرن الرابع عشر من قصة (يوسف وزليخة) التي ألفها الشاعر جامي. وكذلك فقد صور في القرن السابع عشر كتاب روضة الصفا الذي وضعه (ميرخواند) في القرن السادس عشر كما يوضح شكل (10) (Burckhardt,2009).

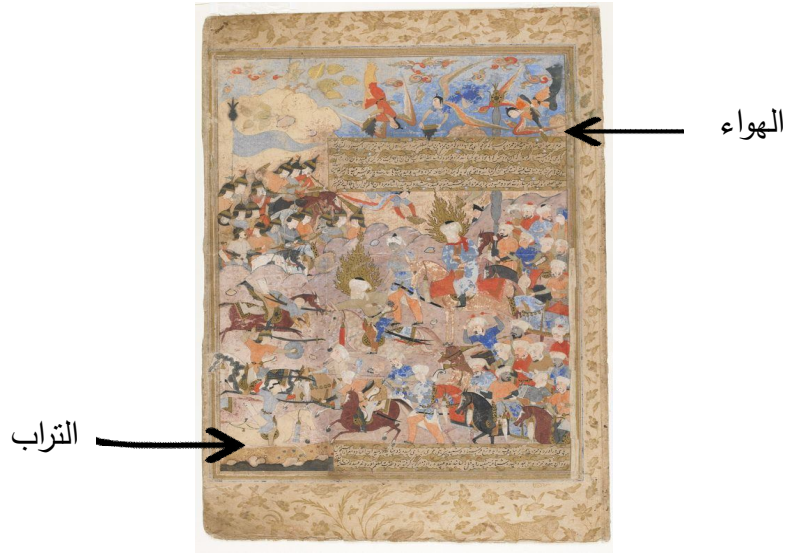

شكل (10): روضة الصفا، British Library - Mirkhvand's Rawzat al-Safa

المدرسة المملوكية:

اهتم سلاطين المماليك بأساليب المدرسة العربية في بعض أنواع الكتب مثل (مقامات الحريري) وكتاب (كليلة ودمنة)، إضافة إلى بعض الكتب العلمية والحربية وقد تكون المدرسة المملوكية متأثرة بأساليب المدرسة العربية بسبب هجرة الكثير من الرسامين من العراق بعد الغزو المغولي لمصر والشام فنقلوا معهم أساليبهم الفنية، وربما كانت أقدم منمنمات المدرسة المملوكية مخطوط من كتاب (دعوة الأطباء) للمختار بن الحسن بن بطلان البغدادي، ويعد مخطوط المقامات المكتوب في عام 1334م، من أبرز نماذج مدرسة المماليك، كما يوضح شكل (11) (Fontana,2015).

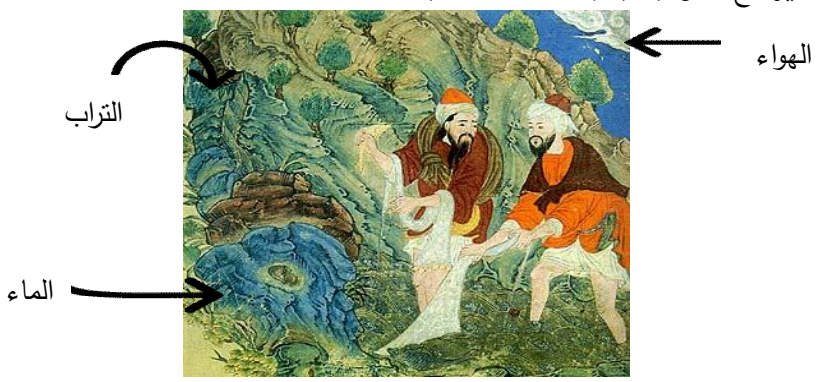

شكل (11): كليلة ودمنه، رسم من حكاية السمكات الثلاث،

المصدر (New York: Oxford University Press, 1989), color plate XI.

المدرسة التركية:

نهضت خلال عهد الحاكم سليمان القانوني وقد ورثت أساليبها في الرسم من الأساليب الشرقية والإسلامية، ويعد (كتاب الحشائش) في مجال الفلك لعام 1131 م أقدم مخطوطة مصورة في مكتبة طوب قابي. أما أقدم المنمنمات وأهمها في تلك الفترة فمخطوطتا (هونرنامه) و(سورنامه) اللتان تضمان 437 منمنمة نفذها النقاش عثمان وفريقه، وتصور احتفالات السلطان مراد الثالث بختان ولده محمد في عام 1582. كما يوضح شكل (12) (Burckhardt,2009).

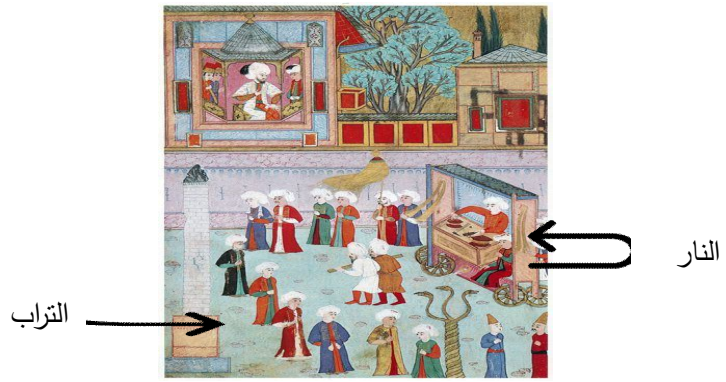

شكل (12): سورنامة، للرسام عثمان، Material Religion The Journal of Objects Art and Belief

المدرسة الهندية:

في البداية اعتمدت على التقاليد الإيرانية بل على الفنانين الإيرانيين، وبعد فترة وجيزة أخذت ملامح الواقع الهندي في الظهور وقد تشربت الروح الإسلامية، ولكن هذا الاتجاه سرعان ما انزوى أمام الزحف الحضاري الأوروبي الذي أكسب التصاوير المغولية الهندية طابعا أوروبيا ظاهرا، ومن أشهر المصورين والرساميين (بزوان) و(مسكين) و(جوفاردهان) و(إخلاص مادهو) الذي شارك في تصوير مئة وسبع عشرة صورة ضمن مخطوطة من كتاب (أكبرنامة) أو تاريخ السلطان أكبر، أما المصور (مسكين) فيظهر أسلوبه من خلال صورة في مخطوطة (حديقة الربيع) للشاعر (جامي)، وهو من المصورين الهنود الذين تشربوا قواعد التصوير الأوروبي كما يوضح شكل (13) (Fontana,2015).

شكل (13): اكبرنامة، للرسام اخلاص مادهو، المصدر: The Yorck Project (2002) Directmedia Publishing GmbH

المدرسة المعاصرة:

وقد أشار د. اسامة شعلان بأن السنوات المئة الماضية شهدت ازدهارا في فن المنمنمات تجلت بظهور نتاجات فنية رائعة، فقد بدأ عصر الازدهار بعد إنشاء مدرسة (كمال الملك) عام 1908م، وقدوم الأساليب الفنية الأوروبية الحديثة واهتمام الرسامين الإيرانين بها. ويعد حسين طاهر زادة وبهزاد من مؤسسي الفنون التقليدية المعاصرة في المدرسة الفنية الوطنية، وأحد رموز فن المنمنمات. ومع تطور هذا الفن ظهرت مدارس معاصرة عديدة وكان أهمها مدرسة (المنمنمات الجزائرية) بريادة مؤسسها الفنان محمد راسم الذي قدم أعمالا رائعة وفريدة من نوعها غنية بالألوان والأشكال، إضافة للعديد من التحف الرائعة التي تكفلت بوصف عادات وتقاليد الحياة الجزائرية العريقة. وقد تمكن محمد راسم بواسطة عبقريته وتحرياته العلمية من إثراء هذا التراث الفني من دون المساس بأصالته، وذلك مع الحفاظ على التقنيات الجمالية الخاصة بفن المنمنمات كما يوضح شكل (14) (Shaalan, 2010).

شكل (14): محمد راسم، المصدر http://thawra.sy/_archive.

وبالتمعن في الأسلوب الفني الذي استخدمه الفنان في هذه المنمنمات الإسلامية جميعها، نجد أنه استخدم أشكالا مرئية مدركة في عمل فني رسالته غير مرئية، وذلك من خلال الابتعاد عن المنهج المحاكاتي فمنهج المحاكاة المولود في مهد الحضارة اليونانية الذي تم بعثه في عصر النهضة والذي اعتمد على التمثيل والتقليد لما هو طبيعي مدرك من الإنسان والطبيعة وجميع المخلوقات الأخرى، مركزا بذلك على الشق المادي الظاهر فقط دونما التلميح إلى قوته الدافعة الغيبية، أما في تلك المنمنمات فنجد أن حركة الحياة الدالة على الوجود هي ظاهرة في الأعيان وتعتمد الإدهاش البصري التي تتخذه المنمنمة في منهجها وطريقة تكوينها ذات الدلالات الرمزية.

وإذا كان جوهر الفكر هو العلامة فيمكننا متابعة عدة صور بصرية في آن واحد، والنص التشخيصي الأساسي الذي يمثل المشهد الحكائي بتقنيته الفنية والجمالية وهو الأكثر دلالة وتشويقا بحكم واقعيته والعناصر الجذابة التي يحملها على مستوى الفكرة أو المضمون. ولعل ذلك الإدراك الإيماني هو ما جعل العمل المرسوم في الحضارة الإسلامية يختلف كل الاختلاف عنه في الحضارة الغربية، فاللوحة شكل مؤلَّف أو مركَّب تحضر فيه وجهة نظر الفنان المسلم الذي يتحكم في رؤيته للكون والعالم نموذج إيماني كامن وكامل هو النموذج الإسلامي. فالمشهد الواقع أو الحادث المراد رسمه، سواء كان مرتبطا بنص مكتوب أم لا، يتم تجريده من حواشيه، وإعادة ترتيبه من خلال التركيز بداية على عنصر الأهمية والمركز، واستبعاد عناصر الضعف، وتقديم عنصر في مقدمة المنمنمة ووضع آخر في الخلفية، كل حسب ضرورته وتأثيره؛ مما يقدم في النهاية عالما قائما على التناغم والتكامل، يكون بداية أحد مدلولاته حضور قدرة الله تعالى في تسيير مخلوقاته.

وفي إطار التعاطي لفكر الفن الإسلامي، ومع عرضنا لنموذج المنمنمات، نلحظ وجود هذه الرسومات الرمزية لعنصر الماء، والهواء، والتراب، والنار، حيث تعمل بشكل متكامل ومتراكب ومتقاطع في وحدة بلاغية مرئية، تعمل على تعضيد الإيمان بثنائية الروح والمادة، حيث عالم الغيب والشهادة التي إن قام الفنان المسلم باستنساخ شقها المادي الظاهر، فإنه سيغفل القوة الدافعة المحركة لهذا الشق ألا وهي الروح التي يجهل كنهها، فالتجريد يمثل مسافة إيمانية بالقيمة المطلقة والقدرة الإلهية المحركة للوجود، إلا أن النتيجة التي تمخضت عن ذلك هو الوصول إلى لغة كانت تارة مكتوبة أو مقروءة أو إشارية أو حركية أو أيقونية، ووصول الإنسان إلى اللغة إنما فتح الباب أمامه للتعبير عن أول تلك المشاعر والانفعالات والهواجس، وكل ما يجول بخاطره ويحدد علاقته وموقفه بالآخرين والبيئة وما تكتنفه في الزمان والمكان.

ومن الطبيعي أن تحتاج الكثير من النصوص المعرفية التي تتضمنها المنمنمات العربية بمختلف مواضيعها إلى رسوم توضيحية تجسد فكرة تجسيد العناصر الكونية الأربعة في أرض الواقع، وتنقل العين والفكر إلى المشهد سواء كان واقعيا أو خياليا حتى يمتلك قدرة أكثر على التأثير والإقناع، وهي تكتنز كثيرا من المعاني

والدلالات وتضم فنونا عديدة في آنٍ واحد، ولها قدرة كبيرة على التعبير، وتتميز بخصائص مميزة تشمل الجوانب التقنية والأسلوبية والوظيفية التي يطمح إليها هذا التصوير، وينطلق هذا كلّه من فلسفة تتناول الإنسان والكون والدين في إطار معرفي، وتربط فلسفة التصوير في الإسلام بين العالم المادي وبين العالم الروحي ربطا محكما ينزع إلى الكمال ويجعل من أعمال الفن نمطا فريدا في مزاياه.

إن الترابط الفكري بين المنمنمات وأيدلوجية العناصر الكونية الأربعة ، هو ما يشكل المضمون الحقيقي للمنمنمة، وهذه المعطيات هي التي تشكل أنساق المنمنمة ومضمونها الحقيقي، فما ندركه نحن كدلالات مرئية يشكل في واقع الأمر الأساس الذي ينبني عليه إنتاج المعرفة: المعرفة الخاصة بعالم التكوين الخارجي وطرق استيعابه من لدن ذاتية الرائي المدركة. وعلى هذا الأساس فإن التركيب السيميولوجي للمنمنمة هو نفس التركيب الذي يتحكم في عملية إدراك التكوين الخارجي.

لقد تعلم الفنان المسلم عن طرق دراسة علاقات هذه العناصر الأربعة في الطبيعة كيف يحقق البنية التركيبية العميقة لشكل المنمنمة ومضامينها، فإن المرور عليها كمزوقة جميلة يفقدها قيمتها الأنثروبولوجيه والأركيولوجية، وعلى هذا الأساس تبدو ممارسة لعبة التفكيك والتركيب وتحديد البُنى العميقة التأويلية وراء البنى السطحية المتمظهرة فونولوجيا ودلاليا، وهي بأسلوب آخر دراسة شكلانية المضمون؛ هي ضرورة ينبغي الكشف عنها عبر الشكل من أجل تحقيق معرفة دقيقة بقيمتها الجمالية والفكرية والاجتماعية، ضمن منهج السيمياء. وعليه فإننا نجد أن المنمنمة ارتبطت بالعناصر الكونية الأربعة من خلال ابتداء مزيج هائل من العديد من العناصر والمفردات، وتجسدت على النحو الآتي:

أولا : بنائية العمل الفني:

إن عناصر العمل الفني ومفرداته التشكيلية التي تبني عليها المنمنمة لا تخلو من التأكيد على وجود أساسيات الحياة الأربعة الماء، والهواء، والتراب، والنار التي تتجدد وتنطلق داخل العمل الفني وتعود مرة أخرى فى تشكيلات جديدة متنوعة من عمل لآخر لتحقيق القيم الجمالية.

فاللوحة عبارة عن مجموعة من العناصر والمفردات التشكيلية ذات تشكيل فني بهيئاتها البنائية المنظورية، فتكبيرها أو تصغيرها أو التنوع فى أحجامها أو تسليط الضوء على أجزاء منها كل ذلك يخضع للتكوين العام فى اللوحة التى بدت فيها الأشكال والكلمات وكأنها تسبح فى محيط العمل الفني.

إن العناصر الأربعة المعروفة ليست إلا التظاهرات الخارجية للعناصر الحقيقية أو المبادئ الأساسية التي تفرعت من الوحدة. فلعنصر الماء الصفات المغناطيسية، فهو يغذي ويدعم الوجود، أما عنصر النار فله الصفات الكهربائية الخلاقة وهو يغير الوجود من شكل إلى آخر، أما الهواء فهو عنصر فصل وهو الذي يسمح أصلا بتواجد النار والماء معا، أما عنصر الأرض أو التراب فيسمح لتواجد النار والماء والهواء بنسب معينة تسمح بتكوين الأشياء والطبائع المختلفة.

ولفهم منظومة العناصر الأربعة في الطبيعة يمكننا القول إن الشجرة مثلا تمتص الماء والمعادن من الأرض من أجل النمو، أي عنصر الماء والأرض، وتتنفس الهواء من أوراقها وتمتص أشعة الشمس أو عنصر النار، وعندما نحرق شجرة يعود إصدار هذه العناصر، فالماء يتبخر، والضوء الممتص سوف يعطي النار المنبثقة، والهواء المتنفس والأوكسجين سوف يساعد عملية الاحتراق، والمواد المغذية الممتصة سوف تعود لرماد كمصدر لأنماط جديدة للحياة.

إن عملية ترتيب وبناء الأشكال في المنمنمات الإسلامية ترتكز في أساسها على الإرساء والتثبيت لبعض القيم التي يطرحها ذلك الفكر المتوارث، فالصورة تعمل على التركيز على بعض الدلالات والمعاني، وتقوم بتهميش وإهمال المعاني الأخرى، فالفنان لا تقف إبداعاته الفنية عند أسلوب أو طريقة واحدة في التعبير، فهو دائما يرتقي إبداعيا بكل منفذ يستطيع أن يعبر به ويخلق ويبدع، لذلك فهو لم يلجأ إلى الحجوم

الأساسية (المربع والمثلث والدائرة)، بل لجأ أيضا إلى الأشكال الأساسية في الوجود: الماء، والهواء، والتراب، والنار (Jakubczak,2001).

ثانيا : طلاقة الشكل والمضمون:

إن فلسفة التصوير في االمنمنمات الإسلامية تظهر في الترابط بين العالم المادي، وبين العالم الروحي ربطا محكما، ينزع إلى الكمال، ويجعل من أعمال الفن نمطا فريدا في مزاياه، تقربه من أن يكون نوعا من ممارسة طقس ديني ففن طبيعة الحياة الباعثة على التأمل والخيال من خلال الاتصال بين العالمين الروحاني والمادي، حيث يتمثل عالم الخيال فيها من خلال الحقائق الدينية والعناصر الأسطورية القديمة التي تخص حياة وتقاليد وتراث الشعوب وليست هذه الأشكال بلا مضامين رمزية، بل كثيرا ما استعارها للدلالة على معان كبيرة. فظهرت في صور مفردات فنية تتحرك وفق نظام بنائي خاص كوسيلة للتعبير من خلالها عن الفكر الكامن من وراء الشكل ليحقق الترابط بين أجزاء المنمنمة عن طريق الصفات التي تحملها العناصر الأربعة سواء كانت إيجابية أو سلبية ويطبقها الفنان، فعنصر النار من صفاته الإيجابية: القوة، والحماس، والتعاطف، والشجاعة، والإرادة وأخذ القرار، وقوة الخلق، والتحدي. ومن صفاته السلبية: الميل للحروب والصراع، والنزق، والميل للتحطيم، وعدم الاعتدال، والميل للتطرف، والغيرة، والشر، والانتقام، والعنف، والكره، والغضب.

أما عنصر الهواء فمن صفاته الإيجابية: اليقظة، والتحرر وعدم القيود، ودفء القلب، والثقة بالآخرين، والوضوح، والخفة، والاستقلال، والتفاؤل، والاجتهاد، والدقة، والفرح، والابتسام. ومن صفاته السلبية: قلة الصبر، وعدم الصدق، والثرثرة، والاحتيال، وانتقاد الآخرين، وعدم الثبات، والتبذير.

والصفات الإيجابية لعنصر الماء: التفهم، والمرونة والليونة، والاعتدال، والثقة، والإخلاص، والرحمة، والتسامح، والتواضع، والتعاطف، والحماس، والطبيعة التأملية الداخلية. وصفاته السلبية: عدم الاهتمام والاكتراث، والكسل، والخمول، والصلابة، وفقدان الاهتمام، وعدم الاستقرار، والكآبة.

وأخيرا عنصر الأرض وصفاته الإيجابية: الثبات، والوعي، والاستمرار، والدقة، والحذر، والمسؤولية، والانتباه، وثبات الرأي، ومصدر ثقة، والصحو، والطموح، والاحترام. أما صفاته السلبية: فالشعور الخانق، والسطحية، والكسل، وعدم الاكتراث، وعدم الوعي، والخجل، وعدم الانتظام، والاحتقار، وثقل الظل.

وهكذا تمثلت عبقرية الفنان في مظاهر إبداعية حورت فيها المفهوم إلى شكل فني دون أن يتخلى عن وظيفته البيانية، فقد أصبح صيغة فنية مجردة، لا ترتبط بالمعنى ذاته بل بصفته القدسية، التي أصبحت جمالية تبعا لجمالية الشكل ذاته.

ثالثا : تداخل الألوان:

إن للعلاقات اللونية الديناميكية والسيميولوجية أثرا هاما في البناء الفني، وهكذا فإن كل عنصر من عناصر الطبيعة الأربعة له دلالات يرمز له بلون معين، فالنار التي يرمز لها باللون الأحمر هي أعلى الطاقة أو قمة الطاقة، أما التراب الذي يرمز له باللون الأصفر فيمثل مرحلة هبوط الطاقة، وتستمر الطاقة في الهبوط خلال هذه الدورة إلى أن تصل إلى مرحلة السكون في الماء الذي يرمز له باللون الأزرق، ثم تعود إلى الصعود عندما يسقي الماء الشجر الذي ينمو إلى أعلى وتنمو الطاقة معه ويرمز له باللون الأخضر، أما بالنسبة للهواء كعنصر طبيعي فيرتبط بكافة العناصر الخمسة الأخرى، فالماء الساكن يحركه الهواء، والشجر يزداد اشتعاله بفعل الهواء.

إن استخدام الألوان والاعتماد عليها فى الوصول إلى فكرة موضوع اللوحة وتعميقهما يجعلها قريبة من الخيال والإدراك فنجد الألوان هنا عبارة عن مساحات لونية موزعة هارمونيا ومتدرجة فى إنسيبابية وتتداخل لتشكل عالما خاصا للفنان، يرفع من مستوي العمل الفني ويعمل على نجاحه وتفوقه من خلال تحديد هيئات

العناصر بحيث تبقي وسيلة تعبيرية تنقل إحساس الفنان وتفصل بين عناصر العمل الفني عن باقي أجزاء اللوحة.

وهكذا نجد في المنمنمات الألوان المرتبطة بكل عنصر من العناصر الخمسة: الشجر: الأخضر والبني، النار: الأحمر والبرتقالي والأصفر الساطع والبنفسجي والزهري، التراب: الألوان الترابية والرملية كالبني الفاتح والأصفر الفاتح والبيج، الماء: الأسود والأزرق، فظهرت الصورة التمثيلية وما تحوي بداخلها من مجموعة علاقاتها اللونية المركبة والمتداخلة بين مختلف المخلوقات، من بشر أو حيوان أو نبات تعمل كلية في التأكيد على البعد الفلسفي والسميولوجي والرمزي للون، متجاوزين إظهار البعد الثالث، فجاءت الأعمال في غاية التوافق والانسجام من ناحية الرسم واللون والعناصر والمضمون، مما جعل الصورة هنا تقوم بعملية الإرساء والتثبيت لبعض القيم التي يطرحها اللون، حيث ترجمة دلالات اللون الذهنية إلى أشكال أيقونية.

نتائج البحث:

1. من خلال التطرق للتحليل السيميولوجي للمنمنمات الإسلامية وجدنا انها تقودنا إلى ابعاد جديدة داخل العمل الفني تحوي بداخلها مجموعة العلاقات المركبة والمتداخلة بين مختلف المخلوقات وعناصر الكون، من بشر أو حيوان أو نبات وماء وهواء وتراب ونار.
2. استمدت المنمنمات أغلب موضوعاتها العلمية أو التاريخية أو الأدبية الواردة في المخطوطات التي تصورها من فلسفة وفكر العناصر الكونية الأربعة وارتباطها بالوجود الإنساني.
3. هناك ارتباط وثيق بين الإنسان وظواهر الكون التي يعتمد بعضها على بعض ليستمر التوازن والاستقرار في الكون وبين سيكولوجية الفكر البشري استطاع الفن الإسلامي أن يجسدها من خلال المنمنمات.
4. استطاعت المنمنمات أن تعكس الأفكار وأنماط الحياة الاجتماعية وأشكال الشخوص والكائنات والأزياء والمباني وفقا لتلك المنظومة السيميولوجية المتكاملة للشكل والفكر والمضمون.
5. أسهمت الرؤية السميولوجية للمنمنمات في الكشف عن الفكر الفلسفي والعقائدي للمنمنمات وأثره في تأليف عناصرها على نحو يجمع بين الواقعي والمتخيّل فظهرت التصاوير بصيغة واقعية مبسطة من دون تكلف في الرسم أو جنوح في الخيال.
6. إن ما يضفي على المنمنمات الإسلامية ابداعها هو تجسيدها لجوهر العقيدة الإسلامية التوحيدية القائمة على أساس من الإيقاع ومن ثم الحركة المستمدة من فكر الرقش العربي وتداخلات المربع والمثلث والدائرة الدالة على عناصر الوجود.
7. قدرة المنمنمة في تحقيق التدرج في نغمات اللون المرتبطة بالدلالات الرمزية لكل عنصر من عناصر الكون الأربعة ، والتي تتنوع بكل درجاتها، وتتوزع وفق المعايير الجمالية المحلية وبما تتضمنه من دلالات مقدسة.
8. براعة الفنان المسلم في تحقيق استعارة معبرة عن حركة الكون والوجود من خلال التفرد في الوحدة الهندسية، ثم التنوع في تعدد الوحدات والألوان، ثم التلاحم في تداخل الوحدات مع بعضها، ثم التتالي في تتالي الألوان والوحدات.

التوصيات:

في ضوء الاستنتاجات التي أسفر عنها البحث الحالي توصي الباحثة بما يلي:

1. تناول علاقة العناصر الكونية الأربعة بمجال الفنون القديمة بالمزيد من الدراسة والبحث للكشف عن المزيد من الرؤي والدلالات الابداعية المرتبطة بها.
2. استكمال البحث في مجالات الفنون الإسلامية وخاصة المنمنمات لما تحويه بداخلها من علاقات ومضامين لا نهائية تكشف عن ابداع الفنان المسلم.

Sources & References **المراجع:**

1. The Holy Quran.
2. Al-Hussein, Ibrahim, 2011, *Art and Technology -The Future of Fine Arts in the Multimedia Era*, Dar Bouregreg Publishing House, Rabat.
3. Al Said, Shaker Hassan, 1998, *I point above the fulfillment of crafts*, House of General Cultural Affairs, Baghdad.
4. Al-Abdul, Abdul Latif Mohammed, 1990, *the human in the thought of the Safa Brothers*, Dar Al-Alam for printing, Cairo.
5. Al-Azri, Ahmad, 2016, *The Linguistic Sign and the Significance of Semantic to Deconstructive*, Library of Literature Books.
6. Alashri, Fathi, 2006, *colors of the times*, the academic library, the Arab Republic of Egypt.
7. Bali, Mervat Izzat Mohamed, 1991, *Plotinus and Sufism in his philosophy*, the Anglo-Egyptian Library, Cairo.
8. Pamuk, Orhan, 2011, *other colors*, Dar Al-Shorouk, Arab Republic of Egypt.
9. Bodair, Faisal, 1980, *the idea of nature in Islamic philosophy*: with its sources, Modern Freedom Library, Egypt
10. Hasab alnabi , Mansour Mohammed, 1981, *the universe and the scientific miracle of the Koran*, Dar al-Fikr al-Arabi, Arab Republic of Egypt
11. Cheddar, Hans, Badawi Translation, Abdul Rahman, 1976, *The Complete Man in Islam*, Publications Agency, Kuwait.
12. Fontana, Maria Vitoria, translated by Izzedine Enaya, 2015, *Islamic miniatures*, Dar Tanweer, Beirut.
13. Karimov Karimov, Karim, *translation of Khamisi*, Abdul Rahman, 2015, the art of Azerbaijani miniatures and the school of Tabriz in the Renaissance, National Center for Translation, Arab Republic of Egypt.
14. Muttalib, Mohammed Abdul-Latif, 1995, *scientists philosophers*, the small encyclopedia General House of Cultural Affairs, Baghdad, Iraq.
15. Muttalib, Mohammed Abdul-Latif, 1997, *philosophies and physics* small encyclopedia General Cultural Affairs House, Baghdad, Iraq.
16. Malkawi, Fathi Hassan, 2013, *Art in Islamic Thought*, A Cognitive and Methodological View, World Institute of Islamic Thought, Jordan.
17. Watkins, Peter, et al., 2008, *The Problematic of Bias in Art and Architecture: A Cognitive Vision and Call for Diligence*, Dar El Salam for Printing, Publishing, Distribution and Translation, Egypt.
18. Young, Carl Gustav, translated by Samir, 1984, *House of Public Cultural Affairs*, Baghdad, Iraq.
19. Aivanhov ,Omraam, 2010, Les Revelations du feu et de l'eau, prosveta editions,France.
20. Beinfield , Harriett & Korngold , Efrem, 1992, *Between Heaven and Earth*, the random house publication group, New York.
21. Blackson Thomas, 2011, *Ancient Greek Philosophy: From the Presocratics to the Hellenistic Philosophers*, john wily &sons publication , United Kingdom.
22. Burckhardt,Titus,2009, *Art of Islam: Language and Meaning*,World Wisdom,USA.
23. Clarke, Arthur, 2000 , *Profiles of the Future: An Inquiry into the Limits of the Possible*, Gateway publications, England.
24. Guthrie, William Keith , 2000, *A History of Greek Philosophy*: Volume 4, Plato: The Man and His Dialogues, cambrige university press, United Kingdom.

25. Jakubczak ,Marzenna ,2001, *Aesthetics of the Four Elements, Earth, Water, Fire, Air*, University of Ostrava, Czech Republic .
26. O'Donohue, John,2010, *Four Elements: Reflections on Nature*, harmnybooks, New York.
27. Rastell, John, 2012, *The Nature of the Four Elements*, Hard Press Publishing,USA.
28. Reid ,Daniel,1998, Harnessing the Power of the Universe, Publisher Shambhala,Canada.
29. Reid, Daniel ,1994, *The complete Book of Chinese Health and Healing*, Publisher Shambhala,Canada.
30. Hassan, Majid, 2004, June, 11, Islamic Art. Civilized dialogue. Retrieved from www.ahewar.org
31. Abdullah, Iyad Hassan, 2010, November, 4, Islamic miniature semiotics Civilizational interactions between them and the rest of the human arts, retrieved from www.takhatub.ahlamontada.com
32. Shaalan, Osama, 2010, October 14, Schools in Miniature Art, Culture and Enlightenment Portal, retrieved from www shaalanu.wordpress.com
33. www.wikiwand.com, Accessed 30/7/2018
34. www.fotografia.islamoriente.com, Accessed 24/6/2018
35. www.mirror.org/greg.roberts, Accessed 1/8/2018
36. www.islamoriente.com/Publications, Accessed 10/7/2018
37. www.almarefh.net, Accessed 10/7/2018
38. www. chaalano.wordpress.com, Accessed 1/6/2018